مناقشات

[١]
الفطرسة الاسرائيلية : جذورهـــا وابعادهـــا

لقد اعتدنا في السنوات الاخيرة على سمـــاع عبارة « غطرسة اسرائيل » من أصدقائها واعدائها على السواء ، من اعدائها كصفة مـــن صفـــات اسرائيل الشريرة ، ومن أصدقائها كخطر يهددها مرارا . وتجد الفئة الثانية مصداقا لمخاوفها من الضربة الاخيرة التي تلقتها في اكتوبر الماضي . فقد ذهب الخبراء الى ان غطرسة تل ابيب وثقتهـــا المفرطة بنفسها كانت من أسباب نجاح العرب . والواقع ان اللواء احمد اسماعيل سبق أن صرح بأن التخطيط العربي اخذ بنظر الاعتبار الغطرسة الاسرائيلية كأحد العناصر الرئيسية في جـــانب العرب .

لقد أشرنا في العنوان الى جذورها لان هـــذه الظاهرة النفسية ليست مجرد نتيجة للانتصارات الصهيونية المتوالية خلال ربع القرن الماضي كما يبدو للبعض . ولا هي مجرد امتداد للاستعـــلاء العنصري الاوروبي كما رأى نزيه قورة في بحثـــه القيم (شؤون فلسطينية ، يناير ١٩٧٤) عن نفس الموضوع . لقد ذهب ذلك البحث الى ان الغطرسة الصهيونية هي اولا جزء من الاستعلائية الاوروبية وثانيا وثانويا امتداد او استثمار لفكرة الشعـــب المختار . في رأينا ان العكس هو الصحيح تماما. والدليل على ذلك هو أن الاوروبيين انفسهم طالما عبروا عن تذمرهم مما أسموه بالغطرسة اليهوديـــة حتى قبل أن تظهر الحركة الصهيونية الى الوجود، كما سنأتي الى ذكره ادناه . هناك جذور طويلة لهذه الغطرسة تمتد ما امتدت الثقافة العبرية في التاريخ ، وفكرة الشعب المختار هي العبارة التي توجز هذا الموقف جوهرا وقالبا . ولكـــن لهذه العبارة على قدمها جذورها الابعد منها .

الحياة ـــ حياة الفرد والمجتمع معا ـــ ما هـــي الا سلسلة ديناميكية (او دايلكتيكية ان شئت) للاحوال وردود الفعل عليها . ونجد في هذا الشأن حالة الذلة والعبودية التي عاشها في فجر تاريخهم المدون ، الحالة التي وصفها العبريون انفسهم والاغيار من المصريين . ولا بد ان العبريين تحلوا كقبيلة سامية بما تحلى به العرب وجميع البدو من شعور عميق بالكرامة والاعتداد بالنفس . بيد أن العرب استطاعوا أن يحافظوا على كرامتهم ببقائهم في معقلهم الجزيرة العربية . وعندما خرجوا الى الامصار خرجوا كأمة عظيمة فاتحة مزودة بايمان يزيد من فخرها واعتزازها . على عكس ذلك جاءت قصة العبريين . فقد نزحوا من معاقلهم الطبيعية في البادية وخرجوا الى مصر دون ان تكون بيدهم قوة العرب او ايمانهم . وبدلا من اخضاع مصر لهم خضعوا هم لحكمها . وبدأت قصة مذلتهم . الرأي السائد هنا ان مأساتهم في مصر قد حلت لان الفراعنة وجدوهم اجانب فاستعبدوهم . ولكننا قد نكون اقرب الى الحقيقة اذا قلنا ان العبريين كبدو من الجزيرة لم يستطيعوا اهدار كرامتهـــم وفرديتهم ومشاركة ابناء النيل في عبوديتهم لفرعون والخضوع لحكمه المركزي المطلق .

ما الذي جعلهم يتركون موطنهم الاصلي مسألة ظلت غامضة وكذلك ظلت مسألة موطنهم الاصلـــي الحقيقي . غير أن الاراء تجتمع على أن تخـــوم بادية الشام كانت المسرح الذي ظهروا عليه اولا . وفي مثل هذا الحزام شبه الصحراوي بين الحضارة والبداوة تتجمع عناصر المجتمع المنبوذ ـــ او ما يسميه علماء الاجتماع بالبارية ـــ المجتمع الذي نظر اليه أصحاب المدن نظرة الخوف والاستهجان كجزء من البداوة البدائية ونظر اليه البدو نظرة